(٩٠) إبراهيم النصراباذي[١]

ذكر الشيخ أبي القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي نوّرَ الله مرقدَهُ، وعطّر مشهدَه:

كان رحمه الله عليَّ الحالِ والمرتبة، شريفَ المقدارِ، عظيمَ الاعتبار لدى الأصحاب، وحيدًا في زمانه، مُشارًا إليه في أنواع العلوم؛ ولا سيما في الحديث.

وكان له في الطريقة نظرٌ دقيق، وتأمُّلٌ عظيم.

وكان رحمه الله ذا شرفٍ عظيمٍ، واحتراقٍ أليم.

وكان رحمه الله أستاذًا وشيخًا في خراسان بعد الشبلي، وكان تلميذًا للشبلي، وأدرك الرُّوذباري، والمرتعش، وغيرَهما من المشايخ رحمهم الله.

ولم يكن في المتأخِّرين أحدٌ بتحقيقه.

وكان رحمه الله في الورعِ والمجاهدة والتقوى عديمَ النظير في وقته.

وكان من نيسابور، جاورَ بمكّة حرسها الله تعالى سنة ستٍّ وستين، ومات بها سنة سبع وستين وثلاث مئة[٢].

نقل أنه رحمه الله أتى يومًا إلى يهوديٍّ، وطلب منه نصف دانق، فمنعه

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨٤، تاريخ بغداد ٦/ ١٦٩، الرسالة القشيرية ١١٦، الأنساب ١٢/ ٨٩، مناقب الأبرار ٨٥١، المنتظم ٧/ ٨٩، المختار في مناقب الأخيار ١/ ٢٧٣، اللباب ٣/ ٣١٠، مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٠٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٣، دول الإسلام ١/ ٢٢٧، العبر ٢/ ٢٤٣، الوافي بالوفيات ٦/ ١١٧، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٧، طبقات الأولياء ٢٦، العقد الثمين ٣/ ٢٣٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٩، نفحات الأنس ٣٣٧، طبقات الشعراني ١/ ١٢٢، الكواكب الدرية ٢/ ١٣، شذرات الذهب ٣/ ٥٨.

(٢) في الأصل: سبع وستين وثمان مئة.

اليهوديُّ وما أعطى، ثم رجع وطلب، فاليهودي نهره، ثم طلب ثالثًا فزجره، وهكذا إلى أربعين مرة، وفي كلِّ مرَّةٍ يسبُّهُ اليهوديُّ، ويقول في وجهه الخنا والمكروه، وهو ما كان يتأذّى ويتألّم من كلامه، وإن كان يُؤذيه كلَّ يوم بنوع من الإيذاء، ولمّا رآه اليهوديُّ أنّه لا يتغيَّرُ ولا يرجعُ عن السؤال، قال له متعجِّبًا من حاله: من أنت! فإنَّك لأجل نصفِ الدانق تحتمل جفاءً عظيما. فقال له النصراباذي: الفقيرُ إنْ تغيَّرَ من حاله لا يكونُ فقيرًا، ولا يسلم منه دعوى الفقراء، قد تحمل عليه مثلَ الجبل في الثقل، فإذا لم يكن له طاقةُ حمل له، فكيف يحملُ مثلَ الجبل؟ فأثّر كلامُه في اليهودي، وأسلمَ من ساعته ببركة حلم الشيخ.

نقل أنّه حجَّ أربعين حجَّةً على التوكُّل، ثم رأى يومًا من الأيام كلبًا ضعيفًا جائعًا بمكّة شرّفها الله تعالى، ولم يكن له شيءٌ يشتري به طعامًا ويُطعمُ الكلب، فنادى وقال: من يشتري أربعين حجَّةً برغيف؟ فجاء رجلٌ وأعطاه رغيفًا، وأشهد جماعةً على الحال، والشيخُ تسلّمَ الرغيفَ، وأطعمَ الكلب، فخرج من بعض زوايا المسجد رجلٌ عارفٌ سالكٌ ولكمَ النصراباذي لكمةً، وقال: يا أحمقُ، في ظنِّكَ أنك صنعتَ شيئًا حيث بعتَ أربعين حجَّةً برغيفٍ؟ أما سمعتَ أنَّ آباك آدم عليه السلام باع الجنات الثمانية بحبَّتين من الحنطة؟ فقعد النصراباذيُّ في زاويةٍ، وأدخلَ رأسَه في جيبه من الخجالة.

نقل أنّه كان على جبلِ الرحمة في الحجاز، فعرضَتْ له عارضةُ الحُمّى، وكان حَرًّا عظيمًا، وكان هناك شخصٌ من العجم، قد خدمَ الشيخ في بلاد العجم، فجاء إلى الشيخ، فرآه في كربِ الحُمّى وكربِ حرارة الشمس، فقال: هل تشتهي شيئًا؟ قال الشيخ: نعم، شربةً من الماء البارد. قال الرَّجلُ: تحيَّرتُ في كلامه، إذ علمتُ أنَّه لا يُوجد هناك ماءٌ بارد، ولكنْ رجعْتُ من عنده، وبيدي إناءٌ، إذ رأيتُ قطعةَ غيمٍ قدر تُرسٍ قد ظهرتْ وأمطرتْ على مثلِ الثلج، فجمعتُهُ، وجعلتُهُ في الإناء، وأتيتُ به إلى الشيخ، وعلمتُ أنّه من كرامات الشيخ رحمه الله، قال الشيخ: من أين هذا، في هذا المكان؟ ذكرتُ له صورةَ

الحال، فكأنّه قد خطرَ بباله أنّه من كراماته، فخاطب نفسه وقال: إما برودةُ الماء، وإمّا حرُّ النار، فانظرْ أيُّهما أحبُّ إليك؟ ثم قال للرجل: انصرفْ. ولم يشربْ من الماء، فذهب الرجلُ بالماء.

وقال النصراباذي: كنتُ بالبادية متوجِّهًا إلى مكّة، فحصل لي ضعفٌ عظيم، حتى أيستُ من الحياة، وكان بالنهار، فوقع نظري على جرمِ القمر في تلك الحالة، فرأيت مكتوبًا عليه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فقويَ قلبي، وزالَ عنّي الضعفُ بتوفيق الله عزَّ وجل.

وقال: زرتُ قبرَ موسى عليه السلام، فسمعتُ عن ذرات وجوده: ﴿أَرِنِيٓ﴾ ﴿أَرِنِيٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقال: كنتُ متوجِّهًا إلى مكّة نوبةً، فرأيتُ في الطريق رجلاً ساقطًا على الأرض، يضطربُ ويلبطُ، أردتُ أن أقرأَ الفاتحة، وأسألَ الله تعالى له الصِّحةَ، فسمعت صوتًا من ورائي: دع ذا الكلب؛ فإنّه عدوٌّ للصدِّيق ـ يعني أبا بكر رضي الله عنه.

ونقل أنه رحمه الله كان مشغولاً بالوعظ، فدخل عليه فتىً ربَّابيٌّ، واستمعَ على كلامه، وسمع منه كلامًا، وأثَّر في فؤاده كالسهم في الهدف، فخرجَ من المجلس، وجاء إلى والدته متغيِّرَ اللَّون، وهو يرجفُ خوفًا، فظنَّتْ والدتُهُ أنه متَّجعٌ، فسألته عن حاله، فقال: قد عبرَ الحالُ عن السؤال؛ ولكن أدخلُ هذا البيت، وبعد مضيِّ ساعةٍ قولي للحمَّالين ليحملوني إلى المقبرة، وأعطي قميصي للغسَّال، وقِبائي للحفّار، واغرزي المِضرابَ الذي كنتُ أَضربُ به الربابَ في عيني، فلمّا أتمَّ الوصيةَ، دخلَ البيت، ومات في ساعته رحمه الله.

ونقل عن النصراباذي كلماتٌ عالية منها ما قال: نسبةٌ بين العبد وآدم عليه السلام بالنبوة، وبينه [وبين] الحقِّ بالمخلوقية، فمن انتسبَ إلى آدمَ عليه السلام وقعَ في ميادين الشهوةِ، ومواضعِ الآفات؛ لأنَّ النسب إلى آدم عليه السلام إنّما هي في الإنسانية والطبيعة، ولا اعتبار لنسبة الطبيعة، ومن انتسبَ إلى الحقِّ

انسرحَ في مقاماتِ الكشفِ والبرهان، والعصمةِ والولاية، فالنسبة الأولى تذكر للبشرية، والثانية تحقيقُ العبودية، ولا يحرم التغيّر حول هذه النسبة، ومن اتَّصفَتْ بها فيليقُ بأن ينادي: يا عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون[١].

وقال رحمه الله: من صحَّتْ نسبتُهُ إلى الحقِّ عزَّ وعلا، فلا يؤثِّرُ فيه الطبعُ والشيطان.

وقال: المضطرُّ من لا قدرةَ له على أن يذكر الله تعالى، فإن من [له] آلةٌ يذكر الله بها فليس بمضطرّ.

وقال: ما ضلَّ أحدٌ في هذا الطريق إلاّ بسبب فساده في ابتدائه، فإنَّ فسادَ الابتداء يسري في فساد الانتهاء.

وقال: من رغب في العطاء فهو ذليلٌ، ومن رغبَ في المُعطي فهو عزيز.

قال: الصلوات إلى طلبِ الصفح والعفو من التقصيرات أَقربُ منها إلى طلبِ الثواب والجزاء.

وقال: الموافقةُ أمرٌ محمود، ومع الله أحمد[٢].

وقال: من صحَّتْ له مع الله تعالى الموافقةُ لحظةً، فلا يقدرُ على المخالفة في حالٍ أبدًا.

وقال: إنَّ الله تعالى سمّى أصحاب الكهف ﴿فِتْيَةٌ﴾ [الكهف:١٣]، لأنهم آمنوا بلا واسطة.

وقال: إن اللهَ غيورٌ، ومن غيرته أنَّه لا طريقَ إليه إلاّ به.

وقال: بمتابعة السنة توجدُ المعرفة، وبأداء الفرائض القربةُ، وبالمواظبة على النوافل المحبة.

---

(١) انظر طبقات الصوفية ٤٨٦؛ فالخبر فيه.

(٢) في الأصل: ومع الله أحد. وفي مناقب الأبرار ٨٥٢: موافقة الأمر حسن، وموافقة الآمر أحسن.

وقال: من فاته أدبُ النفس فمتى يكون له الوصول إلى أدب القلب؟ ومن فاته أدبُ القلب فكيفَ يصلُ إلى أدب السرِّ؟ ومن فاته أدبُ السرِّ فلا يصلُ إلى أدب الروح، ومن فاته أدب الروح فلا وصولَ له إلى مقام القربة، بل لا يُمكنه الوقوفُ على بساط القربة إلاّ بعد التأدُّب بفنون الآداب كلِّها، ويكون أمينًا في السرِّ والعلانية.

قيل للنصراباذي: إنّ بعضَ الناس يُجالسُ النساء، ويقولُ: أنا معصومٌ في رؤيتهن! فقال رحمه الله: ما دامتِ الأرواحُ في الأشباح، فإنَّ الأمرَ والنَّهي باقيان، والتحليلُ والتحريمُ يكفيان، ولا يجترىء على الشُّبهات إلاّ من أَعرضَ المحرمات[1].

وقال رحمه الله: أصلُ التصوّفِ ملازمةُ الكتاب والسُّنة، وتركُ البدع والأهواء، وتعظيمُ حرمات المشايخ، ورؤيةُ أعذار الخلق، والمداومةُ على الأوراد، وتركُ ارتكاب الرُّخص والتأويلات.

قيل: هل لك ما كان للمشايخ؟ قال: ليس لأبي نصراباذي، ولكنَّ الحزن العظيم على التخلف عنهم والحبس على الحرمان.

قيل: وما كرامتك؟ قال: لا أعرفُ لي كرامة إلاّ [أنّي] أعرفُ أنَّ الله تعالى هيَّجني من قرية نصراباذ[2] إلى نيسابور، وأحالني على الشبلي، حتى أنّه صارَ الأمرُ إلى أنَّ ناسًا كثيرًا وصلوا إلى مقام الولاية بسببي، وما كنت أنا في اليقين.

قيل له، وهو على المنبر يُحدِّثُ: ما الحرمة؟ قال: أن أنزلَ من المنبر، وأَدَعَ الكلام، فإنّي لستُ أهلاً له.

قيل له: ما التقوى؟ قال: هو الاجتنابُ عمّا سوى الله تعالى.

قيل له: ليسَ لك من المحبَّة شيءٌ! قال: صدقتم، غير أنّي أَحترقُ منها.

---

(١) كذا الأصل، وفي طبقات الصوفية ٤٨٧، والمناقب ٨٥٢: والتحليل والتحريم مخاطب بهما، ولن يجترىء على الشبهات إلا من يتعرّضُ للمحرمات.

(٢) الأصل: من قرية نصراباذي.

وقال: أهلُ المحبَّةِ قيامٌ مع الله على قدمٍ، لو تقدَّموا خطوةً تفرَّقوا، ولو تأخَّروا خطوةً لحُجبوا.

قال: من شكر على النعمة استحقَّ المزيد، ومن شكر النعمة تزادُ معرفتُهُ ومحبته.

وقال: ما يجدُه القلبُ تظهرُ به بركاتُه على الجسد، وما تجدُهُ الرُّوحُ من الفيض تظهر به بركاتُه على القلب.

وقال: سجنُ العارف جسده، فإذا خرجَ منه وقعَ في الراحة، ثم إلى أينما يُريد يتوجَّه.

قال: درتُ في الدنيا كثيرًا، فما وجدتُ هذا الحديث في موضعٍ، ولا في دفترٍ إلاّ في ذُلِّ النفس.

وقال رحمه الله: الخلقُ كلُّهم في مقام الشوق، وليس لهم مقامُ الاشتياق.

أقول: معناه ما نُقل عن الأستاذ أبي عليٍّ الدقاق رحمه الله أنه كان يُفرّقُ بين الشوق والاشتياق، بأنَّ الشوقَ يسكنُ عند اللقاء، والاشتياقُ لا يسكنُ ولا يزولُ باللقاء، وإذ أَنشدوا بهذا المعنى قول الشاعر[1]:

ما يرجعُ الطَّرفُ عنه [حين] رؤيته حتى يعودَ إليهِ الطَّرفُ مشتاقا

[والله أعلم].

وقال النصراباذي رحمه الله: المروءةُ غصنٌ وفرعٌ من الفتوة، وهي الإعراضُ عن الدنيا وما فيها.

وقال رحمه الله: الرجاءُ يدلُّ على الطاعة، والخوفُ يُنهي عن المعصية، والمراقبةُ تهدي إلى طريق الحقِّ.

وقال: صانوا دماءَ الزاهدين، وأَراقوا دماء العارفين.

---

(١) البيت ينسب لإبراهيم بن العباس الصولي، ولأبي نواس بلفظ:

ما يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

نقل عن الأستاذ إسحاق الزاهد رحمه الله أنّه كان يذكرُ الموتَ كثيرًا، وكان من زهّادِ خراسان، وكان الشيخ النصراباذي يقولُ له: كم تذكرُ الموت! لِمَ لا تذكرُ حديثَ الشوق والمحبة؟ والأستاذُ ما كان يَنتهي عنه، وكان يذكرُ الموتَ كما كان، إلى أن حضرَ النصراباذي رحمه الله وفاتُهُ، وكان شخصٌ من نيسابور عنده، فأوصاه أن يقول للأستاذ الزاهد: إنك صادقٌ فيما كنتَ تقول، فإنَّ الموتَ صعبٌ.

ثم رُئي بعد الموت في المنامِ، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: إنّ الله تعالى ما عاتبني مثلَ عتاب الجبابرة؛ ولكن ناداني: يا أبا القاسم، هل بعد الوصالِ انفصال؟ قلت: لا، يا ذا الجلال، فلا جرمَ لمّا دُفنتُ في اللحد، وصلتُ إلى الأحد.

هذا تمامُ ما نُقل عنه، برَّدَ اللهُ مضجعَه، ووسّع مهجعه، وأنارَ قلوبَنا ببركته، وطهَّرَ نفوسَنا بحرمته، وحشرنا مع الأبرار الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله الطيبين وعترته الطاهرين.

* * *